الموسوعة الذهبية للثورات المصرية

معركتان ثوريتان

بقلم: عبد التواب يوسف
ريشة: عبد الرحمن بكر

دار زهور المعرفة والبركة

رقم الإيداع
الترقيم والفهرسة المكتبية

يوسف، عبد التواب
الثورات المصرية : قصص أطفال
تأليف : عبد التواب يوسف
ريشة : عبد الرحمن بكر
الجيزة : دار زهور المعرفة والبركة، ٢٠١٦
٢٤ ص ، ٢٠,٥ X ٢٩ سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٥١٧٢٢٠٤
١- قصص الأطفال
٢- القصص العربية
أ- بكر عبد الرحمن (رسام)
ب - العنوان ٨١٣,٠٢

الموسوعة الذهبية للثورات المصرية

تأليف :
أ/ عبد التواب يوسف

رسوم واخراج فني :
عبد الرحمن بكر
اسكتشات معارك :
د/ ياسر نصر
تلوين : محمد حسن

الناشر / دار زهور المعرفة و البركة
العنوان / ١٢٧ ش أثر النبى - مصر القديمة
- القاهرة - ج.م.ع
٣ ش مكة المكرمة - أرض اللواء - جيزه
ت : ٠١٠٢١٣٥٩٠٦٤ / ٠١٢٢٩٠٦٩٣١٨
٠١٠٠٠٧٤١١٦٤
رقم الإيداع : ٢٠١٦/٢٣٢٧٩

تَمَنَّيْتُ دَائِمًا وَأَبَدًا أَنْ تَكُونَ بَيُوتُ اللهِ الْمُتَنَاثِرَةَ بَيْضَاءَ شَاهِقَةً، فِي أَرْضِنَا الطَّيِّبَةِ، مَرَاكِزَ لِلإِشْعَاعِ الدِّينِيِّ وَالْقَوْمِيِّ، وَتَطَلَّعْتُ إِلَى أَنْ أَلْقَى وَاحِدًا مِنَ الْوُعَّاظِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْرُدَ عَلَى مَسَامِعِنَا قَصَصَ الصِّرَاعِ بَيْنَ مِصْرَ الإِسْلامِيَّةِ وَالطُّغَاةِ الْغُزَاةِ مُنْذُ آمَنَتْ مِصْرُ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.. وَإِنِّي لأَتَصَوَّرُ وُجُودَ هَذَا الْوَاعِظِ، وَأَتَخَيَّلُ حَدِيثَهُ الْحُلْوَ الطَّلِيَّ، الَّذِي يَسْتَنِدُ فِيهِ إِلَى وَاقِعِ تَارِيخِنَا وَدِينِنَا، لا يَشُطُّ وَلا يَشْرُدُ، إِنَّمَا يَرْوِي مُعْتَمِدًا عَلَى الثَّقَافَاتِ مِنَ الْكُتَّابِ وَالْمُؤَرِّخِينَ، لِيُوَضِّحَ لَنَا دَوْرَ عَامِلِ الدِّينِ فِي تَحْرِيرِ بِلادِنَا، وَفِي جَعْلِ مِصْرَ.. مَقْبَرَةً لِلْغُزَاةِ.. وَوَطَنًا لِلْحُرِّيَّةِ.

وَقَدْ سَطَّرْتُ حَدِيثَ ذَلِكَ الْوَاعِظِ إِلَى أَنْ نَلْقَاهُ.

أَنْهَى الْمُجْتَمِعُونَ فِي الْمَسْجِدِ صَلاةَ الْمَغْرِبِ، وَارْتَفَعَتْ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ تَسْبِيحَاتٌ وَدَعَوَاتٌ للهِ، ثُمَّ رَاحَتِ الأَصْوَاتُ تَخْفِتُ رُوَيْدًا.. رُوَيْدًا وَاقْتَرَبَتِ الرُّءُوسُ تَتَهَامَسُ، وَأَصْحَابُهَا يَزْحَفُونَ لِيَلْتَقُوا فِي دَائِرَةٍ مُتَّسِعَةٍ، حَوْلَ مَقْعَدٍ مُرْتَفِعٍ، اعْتَلاهُ بَعْدَ قَلِيلٍ شَيْخٌ جَلِيلٌ وَقُورٌ، يَطُلُّ الذَّكَاءُ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَتَنْضَحُ التَّقْوَى مِنْ جَبِينِهِ، وَتُحِيطُهُ هَالَةٌ مِنْ نُورِ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ، وَتَعَالَتِ الْهَمَسَاتُ تُنَبِّهُ الْمُسْتَرْسِلِينَ فِي سُبْحَتِهِمُ الرُّوحِيَّةِ، وَغَفْلَتِهِمْ بِالدِّينِ عَنْ كُلِّ مَا حَوْلَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا..

–فَضِيلَةُ الْوَاعِظِ .

وَاشْرَأَبَّتِ الأَعْنَاقُ، وَشَخَصَتِ الأَبْصَارُ، وَتَمْتَمَ الشَّيْخُ الْوَاعِظُ بِبِضْعِ كَلِمَاتٍ قَالَهَا فِي صَوْتٍ خَافِتٍ، ثُمَّ تَهَادَتْ عِبَارَاتُهُ، رَشِيقَةً رَقِيقَةً، وَالْكُلُّ مُحَدِّقٌ فِيهِ مُصْغٍ إِلَيْهِ..

قَالَ الشَّيْخُ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَشْرَقَتِ السَّمَاءُ بِنُورِ رَبِّهَا، وَأَضَاءَتِ الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ أَرْضَ النَّاسِ، وَزَحَفَ الْخَيْرُ وَالْهُدَى مَعَ جُيُوشِ الْعَرَبِ، فَدَكَّتْ عَرْشَ الْقَيَاصِرَةِ وَالأَكَاسِرَةِ، وَنَفَضَ الْمِصْرِيُّونَ عَنْ كَاهِلِهِمُ الْغُزَاةَ الرُّومَانَ مُتَعَاوِنِينَ مَعَ جُنُودِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، الَّذِينَ أَقْصَوُا الرُّومَانَ وَأَتْبَاعَهُمْ عَنْ أَعْمَالِ الْحُكُومَةِ، وَوَضَعُوهَا فِي أَيْدِي بَنِي مِصْرَ، بِرَغْمِ اخْتِلافِهِمْ فِي الدِّينِ.. وَلَمْ تَلِن قَنَاةُ الْمِصْرِيِّينَ الْوَافِدِينَ الْجُدُدِ، بَلْ كَانُوا يُنَاوِئُونَ الْوُلاَةَ إِذَا مَا قَسَوْا عَلَيْهِمْ فِي جِبَايَةِ الضَّرَائِبِ، أَوْ إِذَا مَا أَحَسُّوا مِنْهُمْ ظُلْمًا أَوْ عُدْوَانًا، بَلْ قَدْ هَبُّوا فِي ثَوْرَةٍ كَبِيرَةٍ عَامَ 767م فِي نَاحِيَةِ "سَخَا"، وَهَزَمُوا جُيُوشَ الْحُكُومَةِ، وَطَرَدُوا جُبَاةَ الضَّرَائِبِ.. وَكَانَتْ لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ ثَوْرَاتٌ فِي الصَّعِيدِ، وَفِي "سَمَنُّودَ" وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُوَفَّقُوا كَمَا حَدَثَ هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَعَامَلَتْهُمُ الْحُكُومَةُ فِي قَسْوَةٍ وَعُنْفٍ، حَتَّى قَضَتْ بَعْدَ جُهْدٍ جَهِيدٍ عَلَى ثَوْرَتِهِمْ.. وَلَكِنَّهُمُ اسْتَمَرُّوا فِي حَرَكَةِ الْمُقَاوَمَةِ الشَّعْبِيَّةِ حِينًا طَوِيلاً مِنَ الدَّهْرِ، وَلَمْ يَكُفُّوا عَنِ الْكِفَاحِ وَالنِّضَالِ إِلا بَعْدَ أَنْ دَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، فِي عَهْدِ الْمَأْمُونِ، وَصَارَتْ مِصْرُ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ بَلَدًا إِسْلاَمِيًّا.. تُؤْمِنُ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ.. وَقَدْ حَاوَلَ الرُّومُ

أَنْ يَحْتَلُّوا دِمْيَاطَ فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْمِيلادِيِّ، فَرَدَّتْهُمْ مِصْرُ، وَقَضَتْ عَلَى هُجُومِهِمْ.. كَمَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَحُولَ بَيْنَ النُّوبِيِّينَ وَبَيْنَ التَّدَفُّقِ إِلَى صَعِيدِ مِصْرَ، فَهُزِمُوا وَأُسِرَ مَلِكُهُمْ، وَلَكِنَّهُ أُعِيدَ إِلَى بِلادِهِ مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا.

وَاسْتَقَلَّتْ مِصْرُ – بَعْدَ حِينٍ– عَلَى يَدِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ، وَتَحَرَّرَتْ مِنْ تَبَعِيَّتِهَا لِلْخِلافَةِ، وَامْتَدَّ نُفُوذُهُ إِلَى الشَّامِ، وَعِنْدَمَا حَاوَلَ أَمِيرُ "الْمَوْصِلِ"وَ"الأَنْبَارِ" الاسْتِيلاءَ عَلَى دِمَشْقَ فِي عَهْدِ وَلَدِهِ خمَارِيه اسْتَطَاعَ أَنْ يَهْزِمَهُمْ وَيُشَتِّتَ شَمْلَهُمْ، وَبَقِيَتْ مِصْرُ مُسْتَقِلَّةً حِينًا مِنَ الدَّهْرِ..

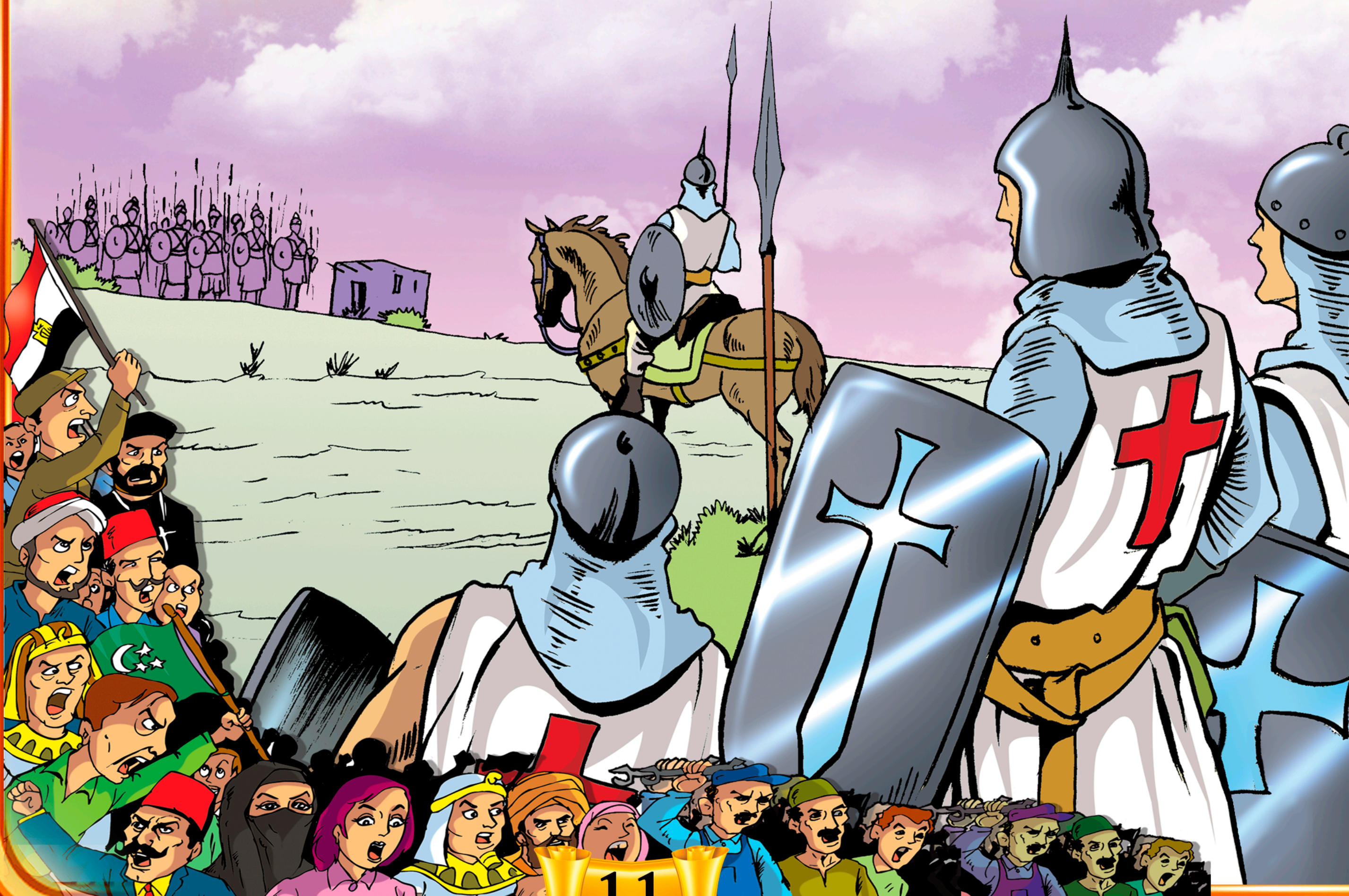


وَقَاوَمُوا فِي شَجَاعَةٍ، ولَكِنْ أَنَّى لَهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا هَذِهِ الْجُيُوشَ الْمُؤْمِنَةَ بِرَبِّهَا، الْمُؤْمِنَةَ بِرَسُولِهِ، الْمُؤْمِنَةَ بِدِينِهَا، الْمُؤْمِنَةَ بِأَرْضِهَا، لَقَدْ عَاهَدَ هَؤُلاءِ الْجُنُودُ قَائِدَهُمْ أَلا يَنْكُصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلا وَالْمَدِينَةُ الْمُقَدَّسَةُ فِي أَيْدِيهِمْ، يَصُونُوهَا، وَيَحْفَظُونَ لَهَا قُدْسِيَّتَهَا، وَلا يَدَعُونَ هَؤُلاءِ الْغُزَاةَ، الْمُشَرَّدِينَ، يُسَيْطِرُونَ عَلَيْهَا، فَمَا هُمْ بِرِجَالِ دِينٍ، وَلا هُمْ يُدَافِعُونَ عَنْ عَقِيدَةٍ، إِنَّمَا هَمُّهُمُ الْمَالُ يَسْتَحْوِذُونَ عَلَيْهِ مِنْ شَرْقِنَا الْغَبِيِّ السَّخِيِّ.. وَكَانَ لا بُدَّ أَنْ يُهْزَمُوا أَمَامَ الْعَقِيدَةِ الْمُؤْمِنَةِ، فَأَشْرَفُوا عَلَى الْهَلاكِ، وَسَلَّمُوا الْمَدِينَةَ، وَخَرَجُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ، تَحْتَ سَمْعِ وَبَصَرِ قُوَّاتِ صَلاحِ الدِّينِ، الَّذِي كَانَ يَقِفُ فِي خَيْمَتِهِ خَارِجَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ يَهِيبُ بِقُوَّاتِهِ أَنْ يُحْسِنُوا مُعَامَلَةَ الْمَهْزُومِينَ، وَأَنْ يَكُونُوا بِهِمْ رُحَمَاءَ رُفَقَاءَ، وَأَنْ يَفُكُّوا قُيُودَ أَسْرَاهُمْ، فَقَدْ كَانَ يَعْتَقِدُ بِأَنَّهُمْ خُدِعُوا بِالْوُعُودِ الْمَعْسُولَةِ، وَالْكَلِمَاتِ الْبَرَّاقَةِ، وَالشِّعَارَاتِ الْكَاذِبَةِ.. وَكَانَ يَعْفِي الْفَقِيرَ مِنَ الْجُنُودِ مِنْ دَفْعِ الْفِدْيَةِ، وَيُرْسِلُ أَطِبَّاءَهُ وَأَسَاتِذَتَهُ لَيْلاً لِيُعَالِجُوا أَعْدَاءَهُ الْمُصَابِينَ.. لأَنَّ قَلْبَهُ الْكَبِيرَ كَانَ فَوْقَ الْحِقْدِ، وَأَكْبَرَ مِنَ الْكَرَاهِيَةِ..

وَعَادَ جُنُودُ صَلاحِ الدِّينِ إِلَى مِصْرَ، وَالنَّصْرُ يُكَلِّلُ هَامَاتِهِمْ، وَهُمْ يَهْتِفُونَ مِنْ أَعْمَاقِهِمْ:

– اللهُ أَكْبَرُ.. اللهُ أَكْبَرُ.. اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا.. وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا.. وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً..لا إِلَهَ إِلا اللهُ.. وَحْدَهُ.. نَصَرَ عَبْدَهُ.. وَأَعَزَّ جُنْدَهُ .. وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ..

وَأَبَى الأُورُبِّيُّونَ الْمُغْتَصِبُونَ لأَرْضِ الْعَرَبِ فِي الشَّامِ أَنْ يَرْتَضُوا الْهَزِيمَةَ، وَرَفَضُوا أَنْ يَقْبَلُوا الرُّضُوخَ لِلْفَشَلِ، وَظَلُّوا فِي غَيِّهِمْ سَادِرِينَ، وَاسْتَمَرُّوا فِي الاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ وَالنِّضَالِ مِنْ جَدِيدٍ، كَأَنَّمَا لَمْ تَكْفِهِمْ هَزِيمَةٌ وَاحِدَةٌ لِيَقِفُوا عِنْدَ حَدِّهِمْ، بَلْ يَأْبَوْنَ إِلا أَنْ تَكُونَ هَزِيمَتُهُمْ شَامِلَةً كَامِلَةً مُدَمِّرَةً، لا تَقُومُ لَهُمْ عَلَى إِثْرِهَا قَائِمَةٌ، فَرَاحُوا يُثِيرُونَ أُورُبَّا مِنْ جَدِيدٍ، وَيَفْتَحُونَ أَبْوَابَهُمْ لِمُهَاجِرِينَ جُدُدٍ مِنْ أَلْمَانْيَا، وَمِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْبُلْدَانِ الْمُتَعَصِّبَةِ، وَقَدِمَ شَبَابٌ، غَرَّرُوا بِهِ، وَسَخَّرُوهُ لِمَصَالِحِهِمْ، وَانْطَلَقُوا فِي صُفُوفٍ طَوِيلَةٍ يُهَاجِمُونَ بِلادَ الشَّامِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي ذَلِكَ الْحِينِ مُفَرَّقِي الْكَلِمَةِ، بَعْدَ وَفَاةِ صَلاحِ الدِّينِ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ صِرَاعٌ عَنِيفٌ مِنْ أَجْلِ تَثْبِيتِ دَعَائِمِ مُلْكِهِمْ.



لِذَلِكَ انْتَصَرَ الأُورُبِّيُّونَ حِينَ أَشْعَلُوا نِيرَانَ الْحَرْبِ، فانتزعوا بَيْرُوتَ وأَجْبَرُوا جُيُوشَ الْمَلِكِ (الْعَادِلِ) عَلَى الانْسِحَابِ مِنْ يَافَا وَالرَّمْلَةِ حَقْنًا لِلدِّمَاءِ.. وكَانَ ذَلِكَ النَّصْرُ الرَّخِيصُ دَافِعًا لِلصَّلِيبِيِّينَ عَلَى أَنْ يَسْتَمِرُّوا فِي اسْتِفْزَازِهِمْ لِمِصْرَ، وَتَطَلَّعُوا إِلَيْهَا بِعُيُونٍ مِلْؤُهَا الْحِقْدُ وَالْجَشَعُ، وَرَاحُوا يُدَبِّرُونَ أُمُورَهُمْ لِغَزْوِ مِصْرَ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ، نَاسِينَ مُتَنَاسِينَ أَنَّ أَرْضَنَا مَقْبَرَةٌ لِلْغُزَاةِ مُنْذُ عَهْدِ الْفَرَاعِنَةِ، وَانْطَلَقَتِ الأَسَاطِيلُ مِنْ سَوَاحِلِ الشَّامِ، تَحْمِلُ جُنُودًا كَالنَّمْلِ عَدَدًا، يَبْغُونَ تَحْوِيلَ مِصْرَ إِلَى مُسْتَعْمَرَةٍ صَلِيبِيَّةٍ، وَتَحْوِيلَ أَهْلِهَا إِلَى لاجِئِينَ مُشَرَّدِينَ كَمَا فَعَلُوا بِأَهْلِ الشَّامِ .. وَاسْتَطَاعَتْ أَسَاطِيلُهُمْ أَنْ تُنْزِلَ جُيُوشَهَا فِي دِمْيَاطَ.. وَاسْتَبْسَلَ الْمِصْرِيُّونَ فِي الدِّفَاعِ، وكَانَ أَمِيرُهُمُ الْعَادِلُ فِي الشَّامِ، فَبَادَرَ بِالْعَوْدَةِ وَقَلْبُهُ يَكَادُ يَنْخَلِعُ أَسًى وَحُزْنًا عَلَى الْمَدِينَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي احْتَلَّهَا الأَعْدَاءُ، وَلَكِنَّهُ فِي أَثْنَاءِ رُجُوعِهِ مَاتَ كَمَدًا.. وَلَمْ تَسْتَسْلِمْ دِمْيَاطُ إِلا بَعْدَ قِتَالٍ مَرِيرٍ، فِي كُلِّ شَارِعٍ، وَفِي كُلِّ بَيْتٍ.. وَعِنْدَمَا حَمَلَ السُّلْطَانُ الْكَامِلُ أَمَانَةَ الْحُكْمِ بَدَأَ يُنَظِّمُ الْمُقَاوَمَةَ الشَّعْبِيَّةَ فِي دِمْيَاطَ، فَأَذَاقَتِ الأُورُبِّيِّينَ الْوَيْلَ، وَقَاتَلَتْهُمْ لَيْلاً وَنَهَارًا، فَمَا عَادَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ، وَرَاحُوا يَسْتَصْرِخُونَ مِنْهَا عَلَى مِصْرَ.. وَبَدَأَتِ الْمُفَاوَضَاتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ، الَّذِينَ قَبِلُوا تَرْكَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِلصَّلِيبِيِّينَ نَظِيرَ انْسِحَابِهِمْ مِنْ دِمْيَاطَ، وَلَكِنْ هَؤُلاءِ أَغْرَاهُمُ النَّصْرُ، وَدَفَعَهُمْ كِبْرُهُمْ إِلَى رَفْضِ هَذَا الْعَرْضِ، وَرَكِبُوا رُؤُوسَهُمْ، وَأَصَرُّوا عَلَى أَلا يَتَوَقَّفُوا

عَنْ زَحْفِهِمْ حَتَّى تَدِينَ لَهُمْ مِصْرُ، وَكَانُوا وَاهِمِينَ، فَمَا اسْتَطَاعَ غَازٍ أَوْ مُحْتَلٌّ أَنْ يَجْعَلَ مِصْرَ تَرْكَعُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَلا تَمَكَّنَ مُسْتَعْمِرٌ أَوْ فَاتِحٌ مِنْ أَنْ يَبْعَثَ بِالْقَوْمِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ، الْعَمِيقَةِ الْجُذُورِ.

بَدَأَ زَحْفُ الصَّلِيبِيِّينَ إِلَى الْقَاهِرَةِ فِي يُولْيُو عَامَ 1221م، وَمَضَوْا فِي جُنُودِهِمْ كَالنَّمْلِ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى قَلْبِ قِطْعَةِ سُكَّرٍ، يَقْتَحُونَ لأَنْفُسِهِمْ فِيهَا دُرُوبًا وَطُرُقًا وَمَسَالِكَ وَسُبُلاً، وَلَكِنْ كَانَ (الْكَامِلُ) وَأُمَرَاؤُهُ، يَقِفُونَ كَالصَّنَادِيدِ، فِي يُمْنَاهُمْ سُيُوفُهُمْ، وَفِي يُسْرَاهُمْ فُئُوسُهُمْ، السُّيُوفُ تَجُزُّ الرُّؤُوسَ، وَالْفُئُوسُ تَحْفِرُ الْقُبُورَ.. يَنْتَظِرُونَ الْغُزَاةَ الْبُغَاةَ!

وَفَاضَ النِّيلُ، فَاضَ بِخَيْرِهِ الْعَمِيمِ، وَانْسَكَبَ يُحِيلُ الأَرْضَ خَضْرَاءَ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ مُنْذُ عَهْدِ أَحْمُسَ، وَتَلاحَقَتِ الأَمْوَاجُ السَّمْرَاءُ مُتَدَفِّقَةً قَوِيَّةً عَنِيفَةً، وَفَجْأَةً عَلَى حِينِ غِرَّةٍ فُوجِئَ الصَّلِيبِيُّونَ بِالْمِيَاهِ الْحُلْوَةِ تَغْمُرُ الأَرْضَ مِنْ حَوْلِهِمْ، وَتَضْرِبُ عَلَيْهِمْ نِطَاقًا لا مَنْفَذَ مِنْهُ إِلا طَرِيقًا ضَيِّقًا يَسِيرُونَ مِنْهُ إِلَى دِمْيَاطَ، وَبَيْنَمَا كَانُوا يَهُمُّونَ بِالْهَرَبِ انْقَضَّتْ عَلَيْهِمْ قُوَّاتُ مِصْرَ، وَرَاحُوا يَحْصُدُونَهُمْ حَصْدًا.. وَلَكِنَّ الإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ تَسْرِي فِي عُرُوقِ الْمُسْلِمِينَ دَفَعَتْهُمْ إِلَى أَنْ يَكُفُّوا أَيْدِيَهِمْ عَنْ فُلُولِ الصَّلِيبِيِّينَ، الَّذِينَ أَخَذُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَهْدًا أَنْ يَجْلُوا عَنْ دِمْيَاطَ، وَأَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مِصْرَ، دُونَ عَوْدَةٍ!وَلَكِنْ مَتَى بَرَّ الْغُزَاةُ بِوُعُودِهِمْ؟ وَمَتَى رَجَعَ الطُّغَاةُ إِلَى عُقُولِهِمْ؟! إِنَّ الأَنَانِيَةَ، وَحُبَّ السَّيْطَرَةِ، وَالرَّغْبَةَ فِي التَّمَلُّكِ لَتَسْتَحْوِذُ عَلَى نُفُوسِهِمْ، وَتَدْفَعُهُمْ

دَفْعًا إِلَى تَكْرَارِ الْمُحَاوَلَةِ؛ فَفِي أَوَاخِرِ مُدَّةِ حُكْمِ الصَّالِحِ أَيُّوبَ عَادَ الصَّلِيبِيُّونَ فَنَزَلُوا فِي دِمْيَاطَ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْجُنُودِ بِقِيَادَةِ لُويسَ التَّاسِعِ، الَّذِي كَانُوا يَعُدُّونَهُ قِدِّيسًا، وَبَطَلاً، وَزَعِيمًا.. وَمَضَتْ جُيُوشُ مِصْرَ، وَعَلَى رَأْسِهَا الْمَلِكُ الصَّالِحُ إِلَى "الْمَنْصُورَةِ" لَمْ يُقْعِدْهُ مَرَضُهُ الْخَطِيرُ عَنْ قِيَادَةِ جُنُودِهِ، وَلَمْ يَحُلْ تَعَبُهُ الشَّدِيدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَدَاءِ وَاجِبِهِ الْمُقَدَّسِ تُجَاهَ مِصْرَ، فَقَدْ آمَنَ فِي أَعْمَاقِهِ أَنَّ وَفَاتَهُ عَلَى فِرَاشِهِ فِي الْقَاهِرَةِ جُبْنٌ، وَنَذَالَةٌ، وَأَنَّ حَيَاتَهُ يَجِبُ أَنْ تُوقَفَ عَلَى مِصْرَ فَحَسْبُ، وَلا بُدَّ أَنْ تُبْذَلَ مِنْ أَجْلِهَا.

وَعَسْكَرَتْ جُيُوشُ مِصْرَ تَنْتَظِرُ الْعَدُوَّ.. وَعِنْدَمَا قَدِمَ الصَّلِيبِيُّونَ فِي جَحَافِلِهِمْ بَدَأَتْ قِيَادَةُ جَيْشِ مِصْرَ تُنَفِّذُ خُطَّةً مِنْ أَرْوَعِ خُطَطِ الْحَرْبِ.. خُطَّةً بَارِعَةً، يَقُودُهَا قَائِدٌ تُوُفِّيَ فِي خَيْمَتِهِ!

كَانَ الْمَرَضُ قَدِ اسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ مَعَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ، وَاشْتَدَّتْ بِهِ الْعِلَّةُ، فَرَقَدَ فِي فِرَاشِهِ، غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى مُغَادَرَتِهِ، تَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهِ فِيهِ "شَجَرَةُ الدُّرِّ"، الَّتِي أَدْرَكَتْ حَرَجَ الْمَوْقِفِ، وَتَأَزُّمَ الْحَالِ، فَبَعَثَتْ تَسْتَدْعِي وَلَدَهُ "تُورَانَ شَاهْ"، وَجَمَعَتِ الأُمَرَاءَ وَقُوَّادَ الْجَيْشِ وَزَعَمَتْ أَنَّ السُّلْطَانَ يَأْمُرُهُمْ بِالْبَيْعَةِ لِوَلَدِهِ "تُورَانَ شَاهْ" لاشْتِدَادِ الْمَرَضِ بِهِ، وَرَاحَتْ تُصْدِرُ أَوَامِرَ مُوَقَّعَةً بِاسْمِ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ قَدْ أَسْلَمَ الرُّوحَ وَهُوَ يَعُدُّ الْعُدَّةَ لِيَجْعَلَ مِنْ مِصْرَ مَقْبَرَةَ الْغُزَاةِ، وَلَكِنَّهُ تَرَكَ جُنُودًا صَنَادِيدَ، الْمَوْتُ أَهْوَنُ عِنْدَهُمْ مِنْ أَنْ يَدَعُوا أَرْضَهُمْ لِلْمُغْتَصِبِينَ، الْمُتَعَصِّبِينَ الصَّلِيبِيِّينَ.

كَانَ الْمَوْقِفُ غَرِيبًا.. فُرْسَانُ أُورُبَّا زَاحِفُونَ بِعَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ، عَلَى أَرْضِ الْمُسْلِمِينَ، وَقُوَّاتُهُمُ الرَّابِضَةُ عِنْدَ الْمَنْصُورَةِ بِقِيَادَةِ مَلِكِهِمُ الْكَامِلِ، الْمُسَجَّاةُ جُثَّتُهُ فِي خَيْمَتِهِ، لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا ذُبَابَةً أَوْ بَعُوضَةً.. وَالْمَفْرُوضُ أَنْ يَتَمَكَّنَ الْقَائِدُ مِنْ دَفْعِ شَرِّ هَذِهِ الأُلُوفِ الزَّاحِفَةِ الَّتِي تَبْغِي تَحْطِيمَ مِصْرَ، قَلْعَةِ الإِسْلامِ، وَحِصْنِ الْمُسْلِمِينَ .. وَانْسَحَبَتْ جُيُوشُ مِصْرَ إِلَى غَرْبِ النِّيلِ، لِتَتَجَمَّعَ وَتَتَكَتَّلَ، وَلِتُعْطِيَ لِنَفْسِهَا فُرْصَةَ الْكَرِّ وَالْفَرِّ، وَلِتَتَمَكَّنَ مِنْ أَنْ تُوقِعَ بِالْعَدُوِّ حِينَ يُحَاوِلُ أَنْ يَعْبُرَ النَّهْرَ الْمُقَدَّسَ: النِّيلَ!

وَأَقْبَلَ لُويسُ التَّاسِعُ، وَهُوَ يَتَوَقَّعُ أَنْ تَرْكَعَ الْمَنْصُورَةُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ عِنْدَ أَوَّلِ طَلْقَةٍ، وَرَتَّبَ أُمُورَهُ عَلَى أَنْ يَدْخُلَ الْقَاهِرَةَ دُخُولَ الْفَاتِحِ الْمُنْتَصِرِ وَالْغَارُ يُكَلِّلُ جَبِينَهُ، وَالنَّصْرُ يَحُفُّ بِفُرْسَانِهِ.. وَلَمْ يَتَصَوَّرْ قَطُّ أَنَّهُ سَيَجِدُ مَنْ يُعَرْقِلُ زَحْفَهُ، أَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَوْزِ، فَالأَمْرُ عِنْدَهُ لا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَكُونَ "نُزْهَةً حَرْبِيَّةً"، وَبَعْدَهَا تَجْثُمُ فَرَنْسَا عَلَى أَنْفَاسِ مِصْرَ فَتَخْنُقُهَا، وَتَخْنُقُ مَعَهَا دِينَ الإِسْلامِ، وَالْمُسْلِمِينَ وَتَدَفَّقَتْ جُنُودٌ فِي وَسَطِ الدِّلْتَا، تُجَاهَ الْمَنْصُورَةِ، تَقْتُلُ، وَتَحْرِقُ وَتُخَرِّبُ حَاسِبَةً أَنَّ فِي ذَلِكَ النَّصْرَ، كُلَّ النَّصْرِ.. وَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى الْمَنْصُورَةِ أَدْهَشَهَا أَلا تَجِدَ فِي شَرْقِ النِّيلِ جُنُودًا يُحَارِبُونَ، فَأَسْرَعُوا إِلَى سُفُنِهِمْ يَعْبُرُونَ النِّيلَ، وَبَدَأَتِ الْمَعْرَكَةُ الْفَاصِلَةُ.

كَانَتِ الْمَعْرَكَةُ تَدُورُ بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، بَيْنَ مُدَافِعٍ عَنِ الْوَطَنِ، وَمُسْتَعْمِرٍ لِلْبِلادِ،

وَكَانَ الْحَقُّ يُؤَيِّدُهُ جُنْدُ اللهِ، وَالْبَاطِلُ يُسَانِدُهُ لُويس بِسُفُنِهِ وَرِجَالِهِ.. وَبَدَأَ الصِّرَاعُ عَنِيفًا قَاسِيًا، مَرِيرًا، وَوَسَطَ النَّهْرِ الْتَقَتِ الزَّوَارِقُ وَالسُّفُنُ، تُحَارِبُ هِيَ الأُخْرَى وَتُقَاتِلُ.. وَنَجَحَ كَثِيرُونَ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ فِي عُبُورِ النِّيلِ، وَبَدَأَ الْقِتَالُ فِي الشَّوَارِعِ وَالطُّرُقَاتِ، مِنْ شَارِعٍ إِلَى شَارِعٍ، وَمِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ، وَالْكُلُّ يُقَاتِلُ، أَطْفَالٌ وَرِجَالٌ، فَتَيَاتٌ وَشُبَّانٌ، حَتَّى النِّسَاءُ رُحْنَ يُلْقِينَ بِقِطَعِ الأَثَاثِ فِي الطُّرُقَاتِ، لِتَسُدَّ عَلَى الزَّاحِفِينَ سَبِيلَهُمْ، حَتَّى يَصِلَ جُنْدُ لُويس لِيُعْمِلُوا فِيهِمْ سُيُوفَهُمْ، لِيُمَزِّقُوهُمْ إِرَبًا..

أَقْبَلَ الْمَسَاءُ، وَصَفْحَةُ النِّيلِ الْخَالِدِ مُغَطَّاةٌ بِالدِّمَاءِ، حَمْرَاءُ قَانِيَةٌ، وَالْمَشَاعِلُ تُضِيءُ السُّفُنَ الَّتِي تَجُولُ



هُنَا وَهُنَاكَ تَبْحَثُ عَنْ جُنُودِ أُورُبَّا.. عَنِ الْفُرْسَانِ.. عَنِ الأَبْطَالِ.. عَنِ الَّذِينَ كَانَتْ تُرَاوِدُهُمْ أَحْلامُ الإِمَارَاتِ وَالْمَمَالِكِ، وَالإِمْبَرَاطُورِيَّاتِ.. وَمَا أَنْ تَعْثُرُ سُفُنُ مِصْرَ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْ سُفُنِ الأَعْدَاءِ حَتَّى تُصْبِحَ فِي لَحَظَاتٍ قَلِيلَةٍ طُعْمًا لِلأَسْمَاكِ، بِجُثَثِ أَبْطَالِهَا الصَّنَادِيدِ، أَوْ تُصْبِحَ أَسِيرَةً فِي أَيْدِي بَنِي مِصْرَ، الَّذِينَ يَسُوقُونَ قَادَتَهَا وَمَلاحِيهَا إِلَى السُّجُونِ وَالْبُيُوتِ مُصَفَّدِينَ بِالأَغْلالِ، مُقَيَّدِينَ بِالسَّلاسِلِ.

كَانَتْ هَذِهِ مَعْرَكَةَ النَّهْرِ، أَمَّا مَعْرَكَةُ الْبَرِّ، فَبَدَتْ فِيهَا بَسَالَةُ بَنِي مِصْرَ وَعَزْمُهُمْ، وَإِصْرَارُهُمْ عَلَى أَنَّ مِصْرَ لَهُمْ وَحْدَهُمْ، وَرَاحَتْ سُيُوفُهُمُ الْبَتَّارَةُ، تَنْهَشُ الأَعْدَاءَ مِنَ الْيَمِينِ وَمِنَ الشِّمَالِ تُمَزِّقُهُمْ إِرَبًا إِرَبًا، وَتُدَمِّرُهُمْ تَدْمِيرًا، وَتُوقِعُ بِهِمُ الْهَزِيمَةَ، بَلْ أَشَدَّ هَزِيمَةً مُنِّيَ بِهَا الصَّلِيبِيُّونَ مُنْذُ وَطِئَتْ أَقْدَامُهُمْ شَرْقَنَا الْبَاسِلَ، الْمُكَافِحَ، الْمُنَاضِلَ..

وَاسْتَمَرَّ الْقِتَالُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ، بِلَيْلِهَا وَنَهَارِهَا، جَاءَ نَصْرُ اللهِ، وَكَسَرَ جَيْشَ أُورُبَّا، وَانْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ ثَلاثِينَ أَلْفًا مِنَ الصَّرْعَى وَالْقَتْلَى، تُرِكَتْ جُثَثُهُمْ لِلنُّسُورِ الْجَارِحَةِ وَالصُّقُورِ، تَهْبِطُ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ تَنْهَشُ لَحْمَهَا، وَتَرِدُهَا الْكِلابُ تُمَزِّقُهَا وَتَلْتَهِمُهَا الْتِهَامًا.. وَوُرِيَتْ تِلْكَ الرِّمَمُ وَالْجُثَثُ فِي الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي بَقِيَتْ لِبَنِيهَا، الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَهَا وَيَسْتَحِقُّونَ مِنْ أَجْلِ الدِّفَاعِ عَنْهَا كُلَّ تَكْرِيمٍ وَتَقْدِيرٍ وَتَشْرِيفٍ..

وَسَاقَ بَنُو مِصْرَ صُفُوفًا طَوِيلَةً لا تَنْتَهِي مِنَ الأَسْرَى، أَذِلاءَ، تَطُوفُ بِرُءُوسِهِمُ الْمُنَكَّسَةِ تِلْكَ الأَحْلامُ

الْقَدِيمَةُ الَّتِي رَاوَدَتْهُمْ وَالْخَيَالاتُ الَّتِي عَاشُوا فِيهَا، وَمَا إِنْ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ قَلِيلاً لِيَتَلَفَّتُوا إِلَى مَا حَوْلَهُمْ حَتَّى أَدْرَكُوا إِلَى أَيِّ وَاقِعٍ مَرِيرٍ مَضَوْا، وَأَيِّ مَصِيرٍ مُظْلِمٍ سَاقَهُمْ لُوِيسُ التَّاسِعُ..

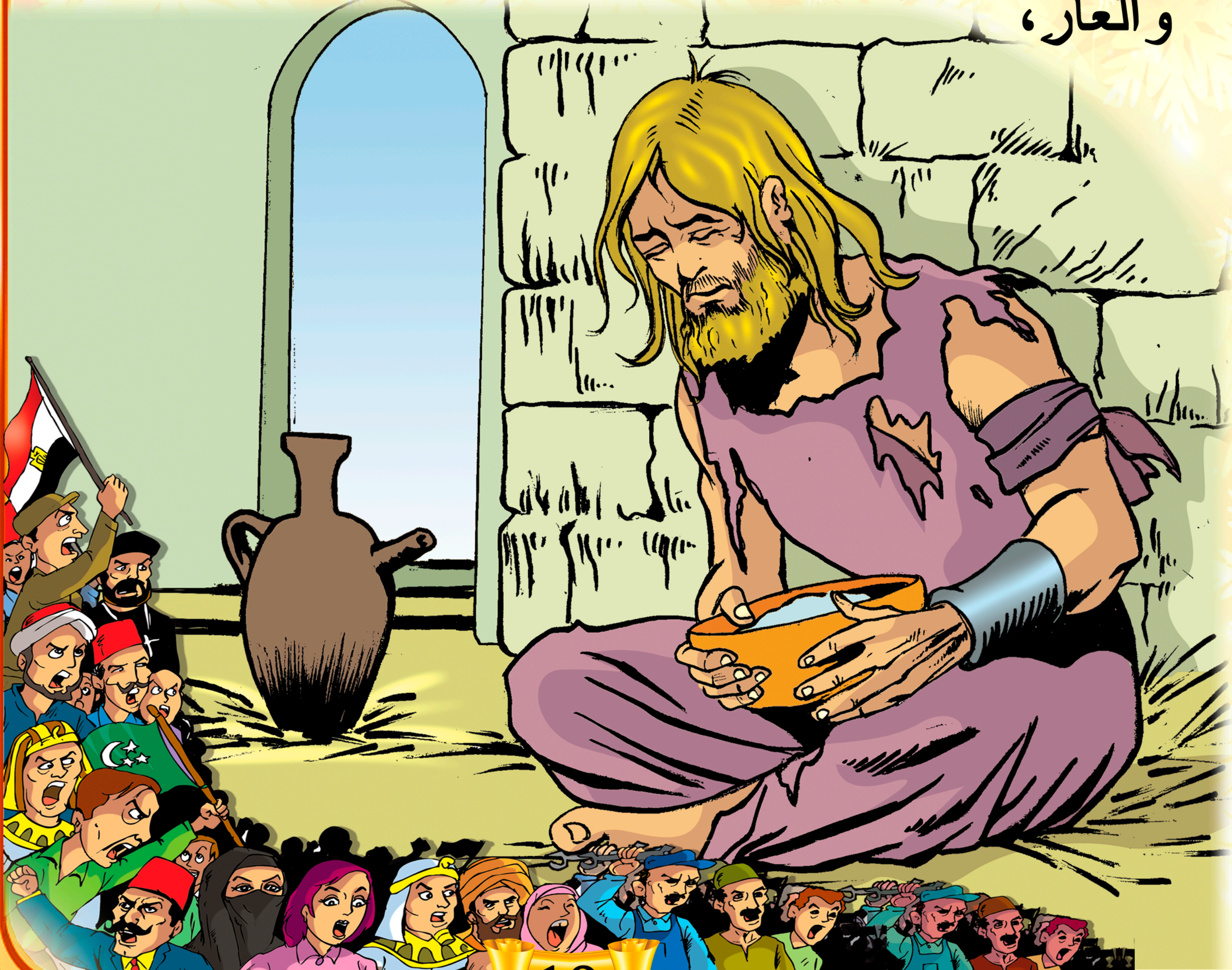
مَالَنَا نَسِينَا ذَلِكَ الْقَائِدَ الْمُحَنَّكَ، وَالْمَلِكَ الْهُمَامَ، الَّذِي أَرَادَ لِنَفْسِهِ إِمْبِرَاطُورِيَّةً وَاسِعَةَ الأَرْجَاءِ، تَمْتَدُّ شَمَالاً وَجَنُوبًا، وَشَرْقًا وَغَرْبًا، يَحْكُمُهَا وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهَا هُوَ وَفُرْسَانُهُ وَجُنُودُهُ؟!.. أَيْنَ هَذِهِ الإِمْبِرَاطُورِيَّةُ الآنَ؟!.. هِيَ هَذَا الْمَكَانُ الَّذِي اسْتَقَرَّ فِيهِ.. وَلا يَزِيدُ طُولُهُ عَلَى ثَلاثَةِ أَمْتَارٍ وَعَرْضُهُ عَلَى مِتْرَيْنِ؟!.. هِيَ هَذِهِ الْغُرْفَةُ الْحَقِيرَةُ مِنْ دَارِ "ابْنِ لُقْمَانَ" يَقِفُ عَلَيْهَا مِنْ أَبْنَاءِ مِصْرَ حُرَّاسٌ أَشِدَّاءُ شُجْعَانٌ؟!.. أَيْنَ الْمَجْدُ؟.. أَيْنَ السَّيْطَرَةُ؟.. أَيْنَ الأَحْلامُ؟.. أَيْنَ الْخَيَالاتُ؟.. تَبَخَّرَتْ كُلُّهَا يَا لُوِيسُ، ذَهَبَتْ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ، وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَسِيرُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ جِئْتَ لِتَأْسِرَهُمْ، أَنْتَ الْيَوْمَ عَبْدٌ لِهَؤُلاءِ الَّذِينَ رَغِبْتَ فِي أَنْ تَسُودَهُمْ، أَنْتَ الْيَوْمَ مَسْلُوبُ الْحُرِّيَّةِ مِمَّنْ قَدِمْتَ لِتَسْلِبَهُمْ حُرِّيَّتَهُمْ.. فِي يَدِهِمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ، وَيَصْلُبُوكَ، كَمَا كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ بِهِمْ، وَقَدْ يَفْعَلُونَهَا، وَإِنْ أَقْدَمُوا عَلَيْهَا، فَلَنْ يُحَاسِبَهُمْ أَحَدٌ، وَلَنْ يَجْرُؤَ وَاحِدٌ عَلَى أَنْ يَرْفَعَ فِي حَضْرَتِهِمْ صَوْتَهُ، وَلَنْ يَجْرُؤَ إِنْسَانٌ عَلَى أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهِمْ بِكَلِمَةٍ.. وَلَكِنْ تُرَى لِمَاذَا تُفْتَحُ أَبْوَابُ سِجْنِكَ يَا لُوِيسُ؟ هَلْ سَيَقُودُونَكَ إِلَى الْمَشْنَقَةِ؟ هَلْ سَيَضْرِبُونَ رَأْسَكَ بِسُيُوفِهِمْ وَيُعَلِّقُونَهَا عَلَى أَبْوَابِ الْقَاهِرَةِ أَوِ الْمَنْصُورَةِ؟ إِنَّ رَأْسَكَ الذَّلِيلَ الْمُنَكَّسَ لَيَسْتَحِقُّ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، وَلْتَنْتَظِرْ مَصِيرَكَ.

كَانَ مَصِيرُ لُوِيسَ التَّاسِعِ – الْمَلِكِ الْقِدِّيسِ– الْقَائِدِ فِي يَدِ بَنِي مِصْرَ، لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِهِ مَا يَشَاءُونَ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَرْحَمَ مِنْ أَنْ يُزْهِقُوا رُوحَهُ وَهُمْ أَصْحَابُ الدِّينِ السَّمْحِ، وَالضَّمِيرِ الْحَيِّ.

فُتِحَتْ أَبْوَابُ دَارِ ابْنِ لُقْمَانَ، وَقَالُوا لَهُ وَلِجُنُودِهِ:

– اذْهَبُوا.. فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ!

إِنَّهُمْ أَتْبَاعُ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْكَرِيمِ، الَّذِي قَالَهَا سَمْحَةً كَرِيمَةً مِنْ قَبْلُ: اذْهَبُوا.. فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ، إِنَّهُمْ يَدِينُونَ بِدِينِهِ، وَيَتَّبِعُونَ دَعْوَتَهُ، وَيَتَصَرَّفُونَ عَلَى هُدًى مِنْ شَرِيعَتِهِ.. وَخَرَجَ لُوِيسُ التَّاسِعُ يَجُرُّ وَرَاءَهُ ذُيُولَ الْفَشَلِ وَالْعَارِ،



وَحقْنَةً مِنْ جُنُودِهِ الْمَهْزُومِينَ، هَرْوَلُوا مُسْرِعِينَ، يُفْلِتُونَ بِأَعْمَارِهِمْ إِلَى دِمْيَاط، لِيُلْقُوا بِأَنْفُسِهِمْ فِي مَرَاكِبِهِمْ لِتَحْمِلَهُمْ بَعِيدًا عَنْ هَذِهِ الْبِلادِ الْمَجِيدَةِ، عَنْ هَذِهِ الْمَقْبَرَةِ الَّتِي تَفْتَحُ فَاهَا لِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِأَنْ يَغْزُوَهَا لِتَظَلَّ دَائِمًا بَلَدَ الأَحْرَارِ.

وَخَرَجَ الصَّلِيبِيُّونَ مِنْ دِمْيَاطَ بَعْدَ أَنِ افْتَدَوْا أَنْفُسَهُمْ بِعَشَرَةِ مَلايِينِ فِرَنْكٍ!

وَلَكِنَّ فَرَنْسَا ظَلَّتْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ بَعْدَ ذَلِكَ تُدَاعِبُهَا فِكْرَةُ غَزْوِ مِصْرَ.. وَحَاوَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَجْعَلَ مِنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ حَقِيقَةً وَاقِعَةً مَرَّةً .. وَمَرَّةً.. وَلَكِنَّهَا بَاءَتْ بِخُسْرَانٍ مُبِينٍ.. كَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ نِهَايَةَ أَحْلامِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَلَمْ تَقُمْ لَهُمْ بَعْدَ يَوْمِ الْمَنْصُورَةِ قَائِمَةٌ، وَسَكَنَتْ حِدَّةُ التَّعَصُّبِ الدِّينِيِّ الْغَرْبِيِّ تُجَاهَ الشَّرْقِ.. إِلَى حِينٍ.

وَظَهَرَ بَعْدَ قَلِيلٍ خَطَرٌ دَاهِمٌ، قَادِمٌ مِنَ الشَّرْقِ..

زَحَفَ التَّتَارُ كَالْجَرَادِ إِلَى الْغَرْبِ، وَاجْتَاحُوا إِيرَانَ.. ثُمَّ الْعِرَاقَ، وَنَزَلُوا بُلْدَانَهَا كَمَا يَنْزِلُ الْجَرَادُ عَلَى حَقْلٍ فَيُمَزِّقُ أَوْصَالَهُ وَيُدَمِّرُ حَيَاتَهُ، وَيُحِيلُهُ خَرَابًا يَابِسًا.. وَكَانَ الْخَرَابُ زَاحِفًا تُجَاهَ الْغَرْبِ يَبْغِي سُورِيًّا، وَمِنْهَا إِلَى مِصْرَ.. وَهَرَعَ النَّاسُ إِلَى "الْمُظَفَّر" يَسْتَنْجِدُونَ بِهِ، وَيَسْأَلُونَهُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ شَرَّ الْبَلاءِ الزَّاحِفِ لِيَقْضِيَ عَلَى الْخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ، وَقَدْ خَرَّبُوا بَغْدَادَ، وَقَتَلُوا مُعْظَمَ سُكَّانِهَا، وَاتَّجَهُوا بِجُمُوعٍ كَأَنَّهَا النَّمْلُ تُجَاهَ سُورِيًّا، وَمِنْ بَعْدِهَا مِصْرَ.. وَأَبَى "الْمُظَفَّر" أَنْ يَقْبَعَ فِي مَقَرِّ دَارِهِ فِي انْتِظَارِهِمْ، وَنَادَى بِتَعْبِئَةِ جَيْشِ مِصْرَ، وَهَتَفَ بِجُنُودِالْمُسْلِمِينَ أَنْ يَهُبُّوا لِيَدْفَعُوا عَنْ بِلادِهِمْ، وَدِينِهِمْ

شَرَّ الْجَرَادِ التَّتَارِيِّ الْمُقْبِلِ، فَقَدْ حَانَتْ سَاعَةُ الْحَرْبِ وَالدِّفَاعِ عَنِ الْعِرْضِ وَالأَرْضِ، لِيُخَلِّصُوا بِلادَ الإِسْلامِ مِنْ غُزَاتِهَا..

وَخَرَجَتْ جَحَافِلُ مِصْرَ إِلَى سُورِيًّا، خَطِّ الدِّفَاعِ الأَوَّلِ عَنْ مِصْرَ، وَالْعُرُوبَةِ، وَالإِسْلامِ.. وَاتَّحَدَ الْعَرَبُ وَالْمَمَالِيكُ، صَفًّا وَاحِدًا، وَيَدًا وَاحِدَةً، عَلَى التَّتَارِ، وَمَضَوْا حَتَّى "عَيْنِ جَالُوتَ"..

وَهُنَاكَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ.. وَاسْتَمَرَّ الْقِتَالُ، وَلَكِنْ كَانَتِ الْمَوْقِعَةُ الْفَاصِلَةُ فِي "بيسان".. اجْتَاحَتْ جُيُوشُ مِصْرَ هَؤُلاءِ الْغُزَاةَ وَطَارَدَهُمُ "الظَّاهِرُ بِيبرْسُ" وَهَزَمَهُمْ فِي مَوْقِعَةٍ تِلْوَ الْمَوْقِعَةِ، وَانْتَزَعَ مِنْهُمُ الْمُدُنَ الْعَرَبِيَّةَ، وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى.. وَأَنْقَذَتْ مِصْرُ حَضَارَةَ الإِنْسَانِ، وَدِينَ الإِسْلامِ مِنْ هَؤُلاءِ التَّتَارِ الْمَغُولِيِّينَ عَامَ 1260هـ، وَعَادَتْ مِصْرُ بَعْدَ ذَلِكَ دَوْلَةً قَوِيَّةً مَرْهُوبَةَ الْجَانِبِ، رَايَتُهَا عَالِيَةٌ خَفَّاقَةٌ، وَخَيْرُهَا عَلَى أَهْلِهَا عَمِيمٌ..

وَكَانَتْ تُرْكِيَا فِي ذَلِكَ الْحِينِ دَوْلَةً إِسْلامِيَّةً نَاشِئَةً، أَتَاحَتْ لَهَا قُوَّتُهَا أَنْ تَتَّسِعَ فِيمَا حَوْلَهَا مِنْ أَرَاضِي أُورُبَّا بِاسْمِ الإِسْلامِ.. وَلَكِنَّهَا كَانَتْ دَائِمًا تَطْمَعُ فِي مَكَانَةِ مِصْرَ الرُّوحِيَّةِ، لِذَلِكَ تَطَلَّعَتْ إِلَى التَّوَسُّعِ فِي آسْيَا عَلَى حِسَابِ جِيرَانِهَا الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ يَقَعُ فِي وَهْمِ أَبْنَاءِ مِصْرَ أَنْ تَطْعَنَهُمْ تُرْكِيَا الْعُثْمَانِيَّةُ هَذِهِ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ، وَخَاصَّةً أَنَّهُ مَا كَانَ فِي مَقْدُورِ الْعُثْمَانِيِّينَ أَنْ يَنْتَصِرُوا عَلَى مِصْرَ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ، لِذَلِكَ اتَّخَذُوا مِنْ بَعْضِ الْمَمَالِيكِ أَعْوَانًا لَهُمْ، وَزَحَفَتْ جُيُوشُهَا بِقِيَادَةِ السُّلْطَانِ سَلِيمِ الأَوَّلِ، وَتَصَدَّى لَهَا الشَّعْبُ، وَكَثِيرُونَ مِنَ الْمَمَالِيكِ

بِقِيَادَةِ طُومَانَ بَاي لَكِنَّهُ هُزِمَ – كَمَا هُزِمَ السُّلْطَانُ الْغُورِيُّ مِنْ قَبْلُ فِي سُهُولِ الشَّامِ– وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ الرِّيدَانِيَّةِ إِيذَانًا بِاحْتِلالِ مِصْرَ، وَإِسْدَالِ سِتَارٍ كَثِيفٍ عَلَيْهَا لِقُرُونٍ طِوَالٍ بَعْدَ أَنْ شُنِقَ طُومَانُ بَاي عَلَى بَابِ زُوَيلَةَ..

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْعُثْمَانِيِّينَ حَكَمُوا بِاسْمِ الإِسْلامِ، فَإِنَّ الشَّعْبَ الْمِصْرِيَّ كَانَ يَحُسُّ فِي أَعْمَاقِهِ بِأَنَّ الأَغْلالَ الَّتِي تُكَبِّلُهُ ثَقِيلَةٌ، وَكَانَ يَتُوقُ دَائِمًا إِلَى التَّحَرُّرِ مِنْ نِيرِ الأَتْرَاكِ، الَّذِينَ أَخَذُوا إِلَى بِلادِهِمْ كُلَّ الْعُمَّالِ الْمَهَرَةِ وَالصُّنَّاعِ، وَتَرَكُوا الْبِلادَ تَتَنَازَعُهَا ثَلاثُ قُوًى: الْوَالِي، وَالدِّيوَانُ، وَالْمَمَالِيكُ. وَتَفَرَّغَتْ كُلٌّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا إِلَى انْتِزَاعِ أَكْبَرِ قَدْرٍ مِنَ الْمَالِ مِنَ الْفَلاحِينَ الْكَادِحِينَ الْبُسَطَاءِ، الَّذِينَ عَانَوْا وَكَابَدُوا الْكَثِيرَ، وَثَارُوا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَكَانَتْ أَرْوَعَ ثَوْرَاتِهِمْ تِلْكَ الَّتِي قَادَهَا عَلِيٌّ بِكْ الْكَبِيرُ



حِينَ حَاوَلَ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِالْبِلادِ، وَقَاتَلَ الأَتْرَاكَ، لَكِنَّ خِيَانَةَ قَائِدِ جَيْشِهِ "أَبُو الذَّهَبِ" أَفْسَدَتْ عَلَيْهِ الأَمْرَ.. وَهَبَّتْ ثَوْرَاتٌ أُخْرَى ضِدَّ الظُّلْمِ الَّذِي يُعَانِيهِ الشَّعْبُ مِنَ الْوَالِي، وَتَعَدَّدَتْ إِقَالَتُهُ مِنْ مَنْصِبِهِ، فَقَدْ كَانَتِ الْجَمَاهِيرُ تَزْحَفُ عَلَيْهِ فِي الْقَلْعَةِ وَتَقُولُ:

– انْزِلْ يَا بَاشَا!

وَيَنْزِلُ الْبَاشَا عَلَى حُكْمِ الشَّعْبِ، وَيَتْرُكُ مَنْصِبَهُ.

وَقَدْ قَامَ الشَّعْبُ – بِقِيَادَةِ الشَّيْخِ الدَّرْدِيرِيِّ– بِثَوْرَةٍ عَارِمَةٍ ضِدَّ التَّسَلُّطِ وَالاسْتِغْلالِ، وَأَصَرَّ عَلَى ضَرُورَةِ أَنْ يَسُودَ الْقَانُونُ، وَتُطَبَّقُ أَحْكَامُهُ عَلَى الْجَمِيعِ، الأَتْرَاكِ الْعُثْمَانِيِّينَ، وَالأُمَرَاءِ الْمَمَالِيكِ، وَأَبْنَاءِ الشَّعْبِ فِي مِصْرَ.. وَصَدَرَتْ خِلالَ هَذِهِ الثَّوْرَةِ أَوَّلُ وَثِيقَةٍ تُعْلِنُ حُقُوقَ الإِنْسَانَ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، وَتُؤَكِّدُ الْحُرِّيَّةَ وَالإِخَاءَ وَالْمُسَاوَاةَ، قَبْلَ أَنْ تَقُومَ الثَّوْرَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ بِسَنَوَاتٍ طِوَالٍ.

وَقَدْ دَاعَبَتْ أَحْلامَ الْفَرَنْسِيِّينَ فِكْرَةُ غَزْوِ مِصْرَ لِقَطْعِ طَرِيقِ الْهِنْدِ عَلَى بِرِيطَانْيَا، وَحَاوَلَ الإِنْجِلِيزُ أَنْ يَحُولُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ، إِلا أَنَّ نَابلْيُونَ بُونَابَرْتَ اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَقِّقَ هَذَا الْحُلْمَ، بِرَغْمِ نِضَالِ الشَّعْبِ وَقِتَالِهِ ضِدَّهُ قِتَالاً مَرِيرًا، وَاسْتُشْهِدَ فِيهِ الأُلُوفُ.. وَرَوَتِ الْحَمْلَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ أَسَاطِيرَ عَنِ الشَّجَاعَةِ الَّتِي دَافَعَ بِهَا أَبْنَاءُ مِصْرَ عَنْ وَطَنِهِمْ، وَكَانَ مُحَمَّدُ كريم حَاكِمِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ–أَوْضَحَ مِثَالٍ لِهَذَا النِّضَالِ الشَّرِيفِ، فَقَدْ قُبِضَ عَلَيْهِ وَالسَّيْفُ فِي يَدِهِ، وَعِنْدَمَا طَالَبُوهُ أَنْ يَفْتَدِيَ نَفْسَهُ بِالْمَالِ، آثَرَ أَنْ يَسْتَشْهِدَ فِي سَبِيلِ وَطَنِهِ.. كَمَا تَنَاقَلَتِ الْحَمْلَةُ قِصَّةَ الطِّفْلِ عَبْدِ السَّتَّارِ آدَمَ، الَّذِي قَاوَمَ الْحَمْلَةَ عِنْدَ بَنِي سويف، وَسَلَبَهَا أَسْلِحَتَهَا لِيَمُدَّ بِهَا الْفِدَائِيِّينَ، وَرَفَضَ بِرَغْمِ كُلِّ وَعِيدٍ وَتَهْدِيدٍ أَنْ يَذْكُرَ أَسْمَاءَهُمْ.. وَكَانَتْ ثَوْرَةُ الْقَاهِرَةِ الأُولَى وَالثَّانِيَةُ أَرْوَعَ انْتِفَاضَةٍ شَعْبِيَّةٍ

ضِدَّ الْغُزاةِ الَّذِينَ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَارُوا: إِمَّا الرَّحِيلَ عَنِ الْبِلادِ، وَإِمَّا أَنْ تُصْبِحَ مِصْرُ مَقْبَرَةً لَهُمْ، فَآثَرُوا الرَّحِيلَ بَعْدَ مَصْرَعِ قَائِدِهِمْ "كِلِيبرَ" بِيَدِ سُلَيْمَانَ الْحَلَبِيِّ، وَبَعْدَ أَنِ اقْتَنَعُوا بِأَنَّهُ لا سَبِيلَ لِلْبَقاءِ عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ الْحُرَّةِ.

وَيَرْتَفِعُ فِي الْمَسْجِدِ صَوْتُ الأَذَانِ.. حَيِّ عَلَى الصَّلاةِ.. حَيِّ عَلَى الْفَلاحِ.. وكَمْ تَرَدَّدَتْ: حَيِّ عَلَى الْكِفَاحِ.. وَيَسْكُتُ الشَّيْخُ الْوَاعِظُ ، وَيَخْتَتِمُ حَدِيثَهُ بِشُكْرِ اللَّهِ وَحْدَهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَأَوَّلُهَا:

نِعْمَةُ هَذَا الْوَطَنِ الْعَظِيمِ، بِنِيلِهِ الْجَارِي، وَأَرْضِهِ الْخَضْرَاءِ.. وَنِعْمَةُ الإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَبِرُسُلِهِ، وَكُتُبِهِ.. وَنِعْمَةُ الْحُرِّيَّةِ الَّتِي مَنَحَهَا اللَّهُ هَذِهِ الأُمَّةَ جَزَاءَ نِضَالِهَا وَكِفَاحِهَا لِكَيْ تَجْعَلَ مِنْ أَرْضِهَا مَقْبَرَةً لِلْغُزَاةِ..
وَتَظَلُّ دَائِمًا أَرْضَ الْحُرِّيَّةِ وَالْبُطُولَةِ.

***

